كلية : التربية الأساسية حديثة

القسم او الفرع : التأريخ

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : م. د. مروان علي مخلف حمد

اسم المادة بالغة العربية : تاريخ المغرب الإسلامي.

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Morocco's lslamic History

اسم المحاضرة السابعة عشر باللغة العربية: دور المغرب في احتضان العرب المهاجرين من الأندلس وحفظ الثقافة والحضارة.

اسم المحاضرة السابعة عشر باللغة الإنكليزية : The role of Morocco in receiving Arab immigrants from Andalusia and preserving culture and civilization.

دور المغرب في احتضان العرب المهاجرين من الأندلس وحفظ الثقافة والحضارة

كان أول من تكهن بمصير الأندلسيين بعد استقرار العرب بإسبانيا بعد الفتح العربي هو الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)، حيث كتب الى عاملة بالأندلس السمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٢هـ)، يطلب منه ان يكتب اليه صفتها وانهارها وبحارها، فكتب اليه السمح يعرفه بقوة الاسلام وكثرة مدائنهم وقوة معاقلهم، حيث عدل الخليفة عمر بن عبد العزيز عن رأيه واقر السمح عن ولايته.... وأقام المسلمون بالأندلس بالرغم مما كان يهددهم من أخطار وخاصة بعد تجمع فلول الاسبان وظهور النواة الأولى للمقاومة الاسبانية في الشمال وذلك في عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ) واصبحت تلك النواة بمرور الزمن ان تتحول الى ممالك اسبانية مدعومة من قبل أوروبا واستطاعت ان تسيطر على أهم المدن والقواعد الأندلسية تباعاً وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي قام بها مسلمون الأندلس شعباً وحكاماً من اجل صد هذا العدوان وكان للمغرب دور في ذلك منذُ عهد المرابطين حيث هبوا لمساندة الأندلس بما استطاعوا من قوة وحافظت على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس ولعدة قرون، ولكن توالت النكبات وازدادت قوة العدو الإسباني الذي اسقط أخر معقل عربي اسلامي بالأندلس وهو مملكة غرناطة عام (٨٩٧هـ/١٤٩٢م) وعانت الأندلس والمغرب الأمرين بعد انحسار الوجود العربي الإسلامي بالأندلس...

ومثلما كانت عدوة المغرب العربي المعين الذي لا ينضب في اسناد الوجود العربي الإسلامي بالأندلس ومنذُ فتحها فقد اصبحت كذلك الوطن الآمن الذي هرع اليه أهل الأندلس بعد نزول النكبات بهم. وقد مرت هجرة الاندلسيين الى المغرب بمراحل تبدأ بعد سقوط طليطلة بيد الفونسو السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨هـ وتنتهي بسقوط آخر مملكة عربية بالأندلس بيد الإسبان عام ٨٩٧هـ وهي مملكة غرناطة، فقسم منهم هاجروا بعد ان سقطت مدنهم بيد الإسبان الى الحواضر الأندلسية التي بقيت بيد المسلمين وبذلك كان تجمهم الكبير في مدن مملكة غرناطة وكان تجمعهم هذا من الأسباب التي مدت في مقاومة هذه المملكة للعدوان الإسباني، والقسم الآخر منهم هاجر الى عدوة المغرب وقد ازدادت هذه الهجرة عندما اصبحت الأندلس ولاية مرابطية، وولاية موحدية وما تلاها من عصور الى سقوط مملكة غرناطة... وقد عانى أهل الأندلس من تمزق نفسي وشعور مرير بالخيبة بعد سقوط الخلافة الأندلسية وقيام عصر الطوائف (٤٢٢-٤٨٣هـ) وقد كان للخليفة وحده حق الإمامة والزعامة الدينية، لذلك لم يكن من السهل على أكثر أمراء الطوائف أن يحتلوا مكان الخليفة، لأنهم كانوا مجرد حكام صغار لا ينحدرون من سلالات معروفة تتناسب مع وقار الخلافة

وهيبتها.

وقد وجهت انتقادات لاذعة لأمراء الطوائف الذين اتخذوا ألقاب الخلفاء استكمالاً لمظاهر السلطان والعظمة، وقد أشار إلى ذلك الشاعر (أبو علي الحسن بن رشيق) بقوله:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد.

وقد كان هذا العصر عصر تفكك وانحلال سياسي واجتماعي ترامى فيه أمراء دويلات الطوائف في احضان ملوك الاسبان يخطبون ودهم ورعايتهم دون ان يقدروا مشاعر أهل الأندلس دون اعتبار للأنفة العربية والعزة الإسلامية، فاستغلت الممالك الاسبانية هذا الموقف والحقت نكبات وكوارث بأهل الأندلس كان أثرها سيئ على النفس الأندلسية فظهرت دعوات تدل على الانسحاب اولاً وتطالب بترك الأندلس لمصيرها المجهول ثانياً وقد عبر عن هذا الأمر بعض الشعراء بقصائد تدل على انهيار النفس الأندلسية ومع سقوط طليطلة سقط ايضاً عدد كبير من المدن والحصون حولها، وكان لهذا السقوط وقع أليم في سائر أنحاء الأندلس وفي سائر أنحاء العالم العربي الإسلامي وقد نظمت القصائد التي تعبر عن هذا الواقع المرير...

وفي هذا العصر ظهرت دعوة ترمي الى توحيد الأندلس والعمل على ايجاد قوة موحدة للصمود أمام خطر الإسبان تزعمها صالح العلماء والفقهاء وبعض أمراء دويلات الطوائف الا ان هذه الدعوة لم يكتب لها النجاح، فكان قرار اهل الأندلس الصائب الذي يتضمن دعوة المرابطين من عدوة المغرب لأنجاد الأندلس واصبحت الأندلس اقليماً تابعاً لدولة المرابطين وازدادت الهجرة من الأندلس الى عدوة المغرب لسببين؟ الأول: التنقل ضمن حدود الدولة الواحدة وقد رحب المرابطون بهؤلاء الوافدين وبخاصة العلماء والأدباء والمفكرين الأندلسيين للاستفادة منهم في الميدان الفكري... والثاني: هروب طائفة من سكان المدن الأندلسية التي وقعت بيد الإسبان في هذا العصر وذهابهم الى عدوة المغرب لينعموا بالاستقرار والطمأنينة.

ولم يستمر عهد المرابطين طويلاً في الأندلس (٤٨٣-٥٤٢هـ) حتى انضوت الأندلس تحت سيادة الموحدين (٥٤٢-٦٢٢هـ)... وقد احتشدت بقايا اهل الاندلس المتداعين في مملكة غرناطة (٦٣٥-٨٩٧هـ) حيث قدر عدد سكانها زهاء الستة ملايين نسمه استفادت منهم في صد عدوان الممالك الإسبانية وفي مد الوجود العربي بالأندلس زهاء قرنين ونصف من الزمان وكانت بداية النهاية باتحاد مملكتي قشتالة وأرغون في عام (٨٨٤هـ-١٤٧٩م) على اثر الزواج الذي تم بين فرانده الخامس ملك ارغون وايزابيلا ملكة قشتالة عام ٨٧٤هـ بعد هذا الاتحاد بدأت خططهم الحثيثة لإسقاط مملكة غرناطة من خلال السيطرة على مدنها

وحصونها تباعاً ولم تبقى امامهم الا مدينة غرناطة فأرسل الإسبان إلى السلطان أبي عبد الله يطلبون إليه تسليم غرناطة وفقا لشروط معينة، فجمع السلطان أعوانه وأجمعوا على الرفض وفي ربيع عام ٨٩٧ هـ/ نيسان ١٤٩١م حاصر الملكان الإسبانيان مدينة غرناطة، وأنشأ المحاصرون مخيماً تحول إلى مدينة أسموها (سانتافي/الإيمان المقدس) وقد خرج مقاتلو غرناطة عدة مرات لشل مخططات الإسبان وإفشالها، ودام الحصار سبعة أشهر صمد خلالها الغرناطيون، وفشلت كل محاولات الاقتحام المتكررة. ومع بداية شهر محرم من عام ٨٩٧ هـ/أواخر عام ١٤٩١م ونتيجة اليأس وانتشار الجوع والمرض، اجتمع أعيان المدينة واتفقوا على تسليمها والتي رضخت لمعاهدة التسليم في ٢٥ كانون الاول من عام ١٤٩١م اي في يوم عيد الميلاد، أما شروط التسليم فوردت في وثيقة مشهورة وأهم ما جاء فيها: –

١– إطلاق الأسرى المسلمين في قشتالة.

٢– تأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

٣– احتفاظ المسلمين بشرعيتهم وقضائهم ونظمهم بإشراف حاكم إسباني.

٤– تأمين حرية الدين والشعائر والحفاظ على المساجد والأوقاف.

٥– أن لا يدخل مسيحي في مسجد أو دار مسلم.

٦– أن يسير المسلم في ديار الإسبان آمنا لا يحمل علامة مميزة.

٧– أن يجتاز إلى أفريقيا من يشاء من المسلمين في سفن ملك الإسبان لمدة ثلاث سنوات من دون مقابل.

٨– أن لا يقهر مسلم أو مسلمة على التنصر.

٩– أن يعامل الحاكم الإسباني المسلمين بالرفق والعدل.

١٠– أن يوافق البابا على الوثيقة.

أما السلطان أبو عبد الله فقد اتفق أن يغادر المدينة إلى منطقة البشرات، حيث يعطى ضياعاً يعيش فيها، ويكون في طاعة ملك قشتالة، كما اتفق أن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها ضمانة للطاعة، وقد أقسم الملكان على الوثيقة من أجل أن يطمئن المسلمون بذلك، ولكن تلك العهود نقضت فيما بعد وفتحت المدينة أبوابها فجر الثاني من كانون الثاني ١٤٩٢هـ/ ثاني ربيع الأول ٨٩٧هـ، فدخل نفر من القادة القشتاليين وتسلموا مفتاح المدينة من أبي عبد الله الصغير وفي الصباح دخل الجند غرناطة يقود طليعتها الكونت (دي تنديلا) الذي عين فيما بعد حاكماً لغرناطة، ورفعوا فوق برج الحمراء صليبا فضياً كبيراً وبقربه علم قشتالة وعلم القديس يعقوب (شنت ياقب)، ثم دخل الملكان الحمراء

ظافرين، وفي اليوم نفسه غادر السلطان أبو عبد الله قصره ومعه أهله واتجه إلى منطقة البشرات يذرف دموعه حسرة وألماً على الملك الضائع وبعد مضي أشهر قليلة على إقامته في منطقة البشرات، أدرك أبو عبد الله أن تلك الحياة الذليلة لا تليق به، فغادر الأندلس إلى عدوة المغرب واستقر في مدينة فاس وتوفي عام ٩٤٠ هـ/١٥٣٤ م.

المسلمون بعد سقوط غرناطة (الموريسكيون):

لم تنته مصيبة المسلمين في الأندلس بزوال سلطانهم السياسي ورحيل سلطانهم إلى المغرب، بل حلت بهم مصيبة أكبر، حيث نقض الملكان الكاثوليكيان العهد ووضعا خطة إبادة للمسلمين الباقين في الأندلس لعقيدتهم الدينية، فشكلا محاكم التفتيش التي تتعقب من يؤدي شعائر الإسلام بأية صورة، فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين المسيحية وأبطنوا الإسلام، وأطلق على هؤلاء اسم (المورسكيون Los Moriscos) أي المسلمون الصغار وبقي المسلمون هؤلاء يقاومون الاضطهاد ما يزيد على القرن من الزمان دفاعاً عن عقيدتهم وكيانهم...وكانت أول ظاهرة ملفتة للنظر بعد رحيل السلطان أبي عبد الله الصغير إلى عدوة المغرب، بدأ مسلمو الأندلس بالهجرة من الأندلس إلى المغرب كما جاء في شروط التسليم التي سهلت لهم هذه المهمة وهي: أن الملكين الإسبانيين ملزمان بتوفير السفن لنقل مسلمي الأندلس إلى المغرب مجاناً ولمدة ثلاث سنوات، وبعدها يدفع من يريد العبور دوبلة واحدا عن كل شخص (الدوبل عملة ذهبية إسبانية قديمة تساوي عشر بزيتات).

وصدرت الأوامر بتعميم مضمون معاهدة التسليم على الأمراء والوزراء والقادة والرهبان والرعية، وأصدر مرسوم يهدد كل من يجرؤ على المساس بما تضمنته هذه المعاهدة وقد ذيل هذا التوكيد بتوقيع الملكين وتوقيع نجلهما الأمير، وحشد كبير من الأمراء وأشراف الدولة وأحبارها وأدى الملك فرانده والملكة إيزابيلا وسائر من حرروا الشروط القسم بدينهم وأعراضهم، أن يصونوا المعاهدة إلى الأبد، وعلى الصورة التي انتهت إليها ومن خلال شروط المعاهدة يتبين لنا بأنها كفلت للمسلمين حريتهم ولغتهم وشعائرهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم، باستثناء حمل الأسلحة، ولكن الذي يبدو أن الملكين الإسبانيين لم يكونا صادقين فعلاً حيث بدأ تعصبهم ونقضهم للمواثيق منذ دخولهم غرناطة ٢/ كانون الثاني ١٤٩٢م، إذ صدرت الأوامر بإحراق كميات كبيرة من الكتب العربية، لكي يسهل على الإسبان إبعاد المسلمين عن مصادر عقيدتهم ومن ثم القضاء عليهم بسرعة، ومن أول الخطوات التي رسمتها الملكة إيزابيلا المتعصبة من أجل تنفيذ سياسة التنصير القسري للمسلمين، أنها اعتمدت على مجموعة من الأحبار

والرهبان، ومنحتهم مناصب في البلاط الملكي، فكان من أخطرهم (الأب خمنيس) مطران طليطلة، وإذا كانت الممالك الإسبانية قد اضطهدت المدجنين (المسلمون الذين ظلوا على دينهم) خلال استردادها القواعد الأندلسية قبل سقوط غرناطة، إلا أنه بعد السقوط أصبح الأمر أكثر خطورة فحرموا من حمل السلاح، وفرضت عليهم الضرائب دون غيرهم من السكان.

ومنذ اللحظة الأولى لدخول الإسبان لغرناطة، تم توزيع مساحات شاسعة من الأراضي على النبلاء الإسبان، فأصبح ملكوها المسلمون أتباعاً للنبلاء هؤلاء وأجريت عملية عزل العناصر الإسلامية عن المجتمع الإسباني، ووضعوا في أماكن معينة، ليسهل السيطرة عليهم والقضاء عليهم في حالة الثورة... وكانت نتيجة هذه السياسة التعسفية التي رافقها إحراق خمنيس للكتب العربية وجعلها أثراً وبعد أن تأججت نار الثورة بين المسلمين وفي الوقت نفسه عين الأب خمنيس رئيساً لديوان مجمع قضاة الإيمان الكاثوليكي (محاكم التفتيش)، والتي تأسست في إسبانيا منذ القرن الثالث عشر الميلادي ولقد أقام الملكان الكاثوليكيان محاكم التفتيش أولاً في إشبيلية عام ١٤٨٠م وفي جميع المدن الأندلسية التي سيطروا عليها، وكانت هذه المحاكم سلاحاً فتاكاً بيد الكنيسة تسحق به كل من لم يذعن لأوامرها.

فكان من نتائج سياسة خمنيس التعسفية قيام عدة ثورات اندلسية ضد التسلط الإسباني الذي اخترق بنود معاهدة تسليم غرناطة ومن أهم هذه الثورات هي:

١- ثورة البيازين في غرناطة عام (١٤٩٩م/٩٠٤هـ):

كانت صدور المسلمين تغلي كالمراجل نتيجة نقض الإسبان لعهودهم ومواثيقهم، وتفجرت ثورتهم عندما اعتدى أحد رجال الشرطة وخادم للأب خمنيس على فتاة مسلمة في حي البيازين في غرناطة، فهاجموا المعتدين، ففر الخادم وقبضوا على رجل الشرطة فقتلوه ومن ثم سارت جموع الثوار إلى دار الأب خمنيس الواقع قرب قصر الحمراء للقضاء عليه، لعلمهم بأن هذه الحادثة هي من تخطيطه واختار الثوار أربعين رجلاً منهم يمثلون حكومة موريسكية مستقلة عن الإسبان، احتمى خمنيس في بيت حاكم مدينة غرناطة الإسباني (الكونت دي تنديا) مستغلاً المحبة والاحترام بين هذا الحاكم والموريسكيين وأغلق الثوار الطرقات أمام الحملات العسكرية التي أرسلتها السلطات ورموها بالحجارة، واستنجدت السلطات بمطران غرناطة (الأب تالا فيرا) الذي يحظى باحترام الموريسكيين فهدأ من ثورة الموريسكيين واقتنعت حكومتهم بأقواله، والتي لا تعدو مجرد الوعود لأن مطران غرناطة وغيره يعملون أولاً وآخراً لصالح المسيحية والممالك الإسبانية.

وحاولت السلطات تهدئة أهالي حي البيازين بأساليب ماكرة، منتظرة الفرصة الملائمة للقضاء عليهم وفي الوقت نفسه هربت حكومة الموريسكيين (حكومة الأربعين) من غرناطة إلى إقليم البشرات خشية التنكيل بهم أو ملاحقتهم من قبل السلطات، وبعد إخماد هذه الثورة عام ١٤٩٩م قرر ملك غرناطة الإسباني تأسيس محاكم التفتيش في غرناطة، والتي تتبعت المسلمين بالتعميد، كما منعت أي موريسكي من الدخول إلى غرناطة حتى لا يختلط بأهلها فيثير فيهم روح الثورة كما حرم على المسلمين اللجوء إلى الكنائس لعلها تخفف عنهم عقوبة الإعدام، ولم يبق أمام هؤلاء الموريسكيين سوى اللجوء إلى المعاقل المنيعة في رؤوس الجبال ومن هناك يشنون الغارات على القوات الإسبانية التي كانت تلاحقهم باستمرار وتبيد مجموعات كبيرة منهم.

٢- ثورة البشرات عام (١٥٠١ م/٩٠٦ هـ):

كان من نتائج ثورة الموريسكيين في محلة البيازين في غرناطة، أن ثار إخوانهم في منطقة البشرات الواقعة في جنوبي غرناطة فأرسلت الحكومة الإسبانية حملة عسكرية للقضاء على هذه الثورة، قادها (الكونت تنديا) القائد الذي قام بالدور نفسه في ثورة البيازين وغيره، ففي طريقها كانت تمر على القرى فتجدها مقفرة من رجالها الأشداء الذين التحقوا بثوار البشرات، فتحرق القرى بعد قتل النساء والأطفال والشيوخ، ولحق بهذه الحملة الملك الإسباني فرديناد وبعض قواده، الذين احتلوا بعض القرى والحصون في الطريق ومن مدينة المرية خرجت حملة إسبانية أخرى تجاه البشرات، فأوقعت هذه الحملات الخسائر الكثيرة بالموريسكيين وأخذت الكثير منهم كرهائن وفي عام ١٥٠٢م وكانت الثورات قد أخمدت عموماً في جميع أراضي البشرات وما جاورها، واضطهد الإسبان الموريسكيين اضطهاداً لا نظير له، فنسفوا مساجدهم، وقتلوا نساءهم وأطفالهم وتعرضوا لحرب إبادة مكشوفة، لأن الموريسكيين في نظر الإسبان مجرد عبيد ورقيق، وأخيراً وضع الموريسكيون المغلوبون على أمرهم أمام أحد الخيارين إما التنصير القسري، أو التهجير خارج إسبانيا.

٣- الثورة في الجبل الأحمر:

بعد اخماد ثورة البشرات ثار سكان الجبل الاحمر غربي رندة في وجه التسلط الاسباني الذي نقض جميع العهود والمواثيق فأرسل اليهم الملك الاسباني حملة عسكرية بقياد (دي أجيلار) وآبنه الدون بدرو، فأستعد لها الثوار ونصبوا لهذه الحملة الكمائن فلما مرت هذه الحملة عبر الممرات الجبلية انهارت عليها الصخور فأبيد معظم الجيش وقتل قائده وجرح أبنه. ولما وصلت اخبار

انتصار الموريسكيين الى الجيش الاسباني قاد الملك الاسباني الجيش بنفسه واتخذ من مدينة رندة قاعدة للهجوم على معاقل الثوار في الجبل الأحمر، الا ان هذا الجيش تعرض لمقاومة عنيفة أجبرت الملك الاسباني التراجع لعدة مرات ولجأ الى سياسة الحصار الطويل حتى يضطر الثوار الى الاستسلام فطال امد الحصار وجاع المحاصرون من الثوار فاستسلموا بعد ان وعدهم الملك الاسباني بالأمان ان ارادوا العبور الى عدوة المغرب واخمدت القوات الاسبانية هذه الثورات بوحشية ولم يتلق الثوار اي مساعدات من اخوانهم خارج الاندلس بالرغم من صرخات الاستغاثة التي ارسلوها الى اخوانهم في عدوة المغرب والى السلطان بايزيد الثاني سلطان العثمانيين (١٤٨١-١٥١٢م) والى الملك الاشرف قانصوه الغوري سلطان دولة المماليك البرجية في مصر (١٥٠١-١٥١٦م) الا ان امالهم خابت حيث لم ينجدوا من أحد ولم يبقى امامهم الا الموت او التنصير القسري او الهجرة القسرية خارج البلاد.

المصادر:

- تاريخ المغرب العربي، لعبد الواحد ذنون طه وأخرون.
- تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، خليل ابراهيم السامرائي وأخرون.